٣٤- بَابُ مِنَ الإِيْمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (التَّغَابُن: ١١).
قَالَ عَلْقَمَةُ: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيْبُهُ المُصِيْبَةُ؛ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ). (١)
وَفِي صَحِيْحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ). (٢)
وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ مَرْفُوْعًا: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ وَشَقَّ الجُيُوْبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ). (٣)
وَعَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ بِالعُقُوْبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ). (٤)
وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاَءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاَهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ). حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ. (٥)

فِيْهِ مَسَائِلُ:

الأُوْلَى: تَفْسِيْرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.
الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا مِنَ الإِيْمَانِ بِاللهِ.
الثَّالِثَةُ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.
الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الوَعِيْدِ فِيْمَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ، وَشَقَّ الجُيُوْبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ.
الخَامِسَةُ: عَلاَمَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ.
السَّادِسَةُ: عَلاَمَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ.
السَّابِعَةُ: عَلاَمَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ.
الثَّامِنَةُ: تَحْرِيْمُ السُّخْطِ.
التَّاسِعَةُ: ثَوَابُ الرِّضَا بِالبَلاَءِ.

---

١) رواه البخاري معلقا في كتاب التفسير ، سورة التغابن ؛ بنحوه ؛ ووصله عبدالرزاق في تفسيرة (٢٩٥/٢) ،والطبري في تفسيره (١٢/٢٣) ،وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (١٣٨/٨) ،والبيهقي في الكبرى (٦٦/٤).
٢) رواه مُسْلِمٌ في صحيحه برقم (٦٧).
٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ في صحيحه برقم (١٢٩٤)، وَمُسْلِمٌ في صحيحه برقم (١٠٣) .
٤) رواه الترمذي في سننه برقم (٢٣٩٦).
٥) رواه الترمذي في سننه برقم (٢٣٩٦) ، وابن ماجه في سننه برقم (٤٠٣١) .

الشرح :
سبق أن تكلم المؤلف رحمه الله على عدة أبواب من العبادات القلبية وهي: **المحبة والخوف والرجاء والتوكل** ؛ وهنا يعقد المؤلف رحمه الله تعالى بابا عظيما من أبواب تلك العبادات التي لا غنى للمسلم عنها ؛ وهي عبادة الصبر على أقدار الله جل وعلا المؤلمة ، أو الصبر على المصائب .
والصبر على المصائب درجة من درجات الصبر، ومرتبة من مراتبه ، وقد تكلم عليها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه مدارج السالكين ، وجعل الصبر منزلة من منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، وذكر هذا المبحث بتفاصيله وما يتعلق به في بحث نفيس جدا ، وختمه بمنزلة الرضا ، ومنزلة الرضا أعلى وأعظم من منزلة الصبر لأن المنازل بالنسبة للمصائب إذا وقعت للعبد أربع منازل :
المنزلة الأولى : منزلة التسخط على المقدور ، وهذه شر المنازل ؛ وهي محرمة؛ وصاحبها آثم ؛ وهي منافية لكمال التوحيد الواجب ، سواء كان هذا التسخط باللسان أو بالقلب أو بالجوارح .
المنزلة الثانية : منزلة الصبر ، وهي حبس النفس عن التسخط والجزع باللسان أو بالقلب أو بالجوارح .
المنزلة الثالثة : منزلة الرضا ، بأن يتساوى الأمران ؛ وأن يسلم العبد الأمر إلى الله جل وعلا ويحسن الظن بربه ويرجو ثوابه ؛ وهي أعلى من منزلة الصبر؛ أي الرضا عند وقوع المصيبة ؛ والرضا عن فعل الله ؛ والرضا عن المقدور إن لم يكن معصية من المعاصي ؛ لأن المعصية لا يجوز الرضا بها ، كمن ابتلي بشرب الخمر أو الدخان أو نحو ذلك ؛ فيقول هذه مصيبة وأنا راض بما قدر الله ؛ فالرضا هنا لا يجوز، بل يجب السعي لتغيير هذا المقدور ؛ بخلاف إذا حصل على الإنسان مرض أو ذهاب مال أو نحو ذلك ؛ فإنه يرضى بفعل الله جل وعلا ويرضى بالمقدور .
المنزلة الرابعة : وهي منزلة الشكر، شكر الله جل وعلا على المصيبة أو على الابتلاء ، وهذه منزلة عالية جدا ؛ قليل من يسلكها أو يصل إليها ؛ فيشكر الله جل وعلا على المصاب الذي حصل له ؛ من ذهاب مال أو أهل أو ولد أو ذهاب صحة أو غير ذلك ؛ فيشكر العبد ربه على المصيبة لأنه بهذا الشكر سينال رضا الله جل وعلا وصلواته ورحمته جل وعلا ؛ وقد يخلف له

خيرا مما ذهب منه أو مثله ؛ قال الله جل وعلا : **(وقليل من عبادي الشكور)** ؛ فهذه مرتبة عالية جدا وقليل من يسلكها ؛ والعبرة هنا ليست مجرد قول اللسان ؛ مع جزع القلب ، بل العبرة بتواطؤ اللسان مع القلب والجوارح ، فقد يقول الإنسان بلسانه كلاما يجامل به من حوله أو يشعر به من حوله أنه راض أو أنه شاكر وقلبه فيه الجزع والتسخط والقلق، فهذا لم يأت بهذه المنزلة .

فهذه مراتب الناس عند نزول المصاب أو البلاء أو الفتن .

أما أنواع الصبر فهي ثلاثة كما ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى وغيره :

الأول : صبر على المأمور ؛ ويسمى بالصبر على الطاعة .

الثاني : صبر عن المعصية ؛ وهو صبر عن المنهي عنه .

الثالث : صبر على المقدور المؤلم أو المصائب .

وأهل العلم اختلفوا في أعلى هذه الأنواع ؛ وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رجح أن أعلاها وأكملها **: الصبر على المأمور**، الصبر على الطاعة ، لأن هذا مقصود شرعي ؛ أما الصبر عن المعصية أو عن المنهي عنه فهو مقصود لغيره لتكميل الطاعة ؛ وشيخ الإسلام ابن تيمية له مؤلف في هذا أثبت فيه هذه القاعدة من أكثر من عشرين وجها ؛ كما قال ابن القيم، وهو موجود في كتاب أصول الفقه عند ابن تيمية، وهو مجموع من كتبه .

قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر في القرآن في أكثر من تسعين موضعا .

(إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) (واصبر وما صبرك إلا بالله) (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا) والصبر غير المصابرة وغير المرابطة **(اصبروا وصابروا)** المصابرة منزلة أعظم من الصبر ؛ والمرابطة منزلة أعظم من المصابرة **(اصبروا وصابروا ورابطوا)** .

وقد جاء في الحديث ـ عند مسلم ـ قوله : «**والصبر ضياء**»([1]) يعني يستضاء به على الحق ، فيكون ثابتا على الحق مؤثرا له .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وجدنا خير عيشنا بالصبر ([2]) .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : (ألا إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بان الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له)([3])

لأن من لا صبر له لا يستطيع أن يقوم بأمر الله ؛ فلا يستطيع أن يقوم الفجر ليتوضأ ويمشي في الظلمات إلى المساجد في أيام البرد ؛ لن يتصبر على

---

[1] رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٣) .

[2] رواه البخاري معلقا في كتاب الرقاق ، باب الصبر عن محارم الله (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)

[3] رواه ابن أبي شيبة في المصنف برقم (٣٠٤٣٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٧١٨) .

الصوم وترك الطعام والشراب ، إلى غير ذلك ، لن يصبر على أخذ المال الذي تعب فيه وكد في جمعه ليخرج منه زكاة المال ، إلى غير ذلك .

لذلك جاء في صحيح البخاري «**ما أعطي أحد عطاء خيرا ولا أوسع من الصبر**»([1]) فالصبر أفضل من المال ومن المناصب ، لأنه بالصبر تستطيع أن تنال كل هذا وتحفظه ؛ وبغير الصبر يذهب عنك كل شيء .

وقد قيل ([2]) :

الصبر مثل اسمه مر مذاقتُه لكن عواقبه أحلى من العسل

الصبر مثل اسمه مر : فالصبر لا يأتي بسهولة ، لكنه يحتاج إلى مجاهدة للنفس، ومجاهدة للهوى ، وللشيطان .

لكن عواقبه أحلى من العسل: فمن صبر ظفر كما جاء في الحديث : «**واعلم أن النصر مع الصبر**» وهذه الرواية في مسند أحمد بإسناد حسن من حديث ابن عباس . **وقال ابن القيم رحمه الله : إنما الشجاعة صبر ساعة.**

قوله : بَابُ مِنَ الإِيْمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

والصبر في اللغة هو : الحبس والكف ؛ يقال : فلان قتل صبرا ؛ يعني قتل محبوسا .

أما في الاصطلاح فهو : حبس اللسان عن التشكي وحبس النفس عن الجزع وحبس الجوارح عن المعصية كضرب الخدود وشق الجيوب .

والصبر واجب ، فلا يظن أحد أنه إذا أتى بالصبر أن هذه فضلة أو منة منه ، بل هذا واجب من الواجبات ؛ إذا نزل بالإنسان مصيبة أو بلاء فواجب عليه الصبر، أما الرضا ففيه خلاف بين أهل العلم ، فمن أهل العلم ومنهم الإمام العلامة ابن عقيل يقول: الرضا واجب ؛ وشيخ الإسلام ابن تيمية يرجح أن الرضا مستحب ، لأن الأدلة جاءت في الثناء على أهله ؛ ولم يأت الأمر به كالأمر بالصبر، فرجح أنه مستحب ، وهذا الكلام في الرضا بالمقدور ؛ وإلا فالرضا بفعل الله واجب ، أما الصبر فهو واجب بالإجماع ولا خلاف فيه .

وابن القيم رحمه الله تعالى يقول في المدارج إن الصبر ذكر في القرآن على ستة عشر نوعا ، **منها : الأمر به (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) فاصبر**: هذا أمر.

ومنها: النهي عن ضده ، وضد الصبر الاستعجال وعدم الصبر والتشكي، قال تعالى **(ولا تستعجل لهم)** .

---

[1] رواه البخاري في صحيحه برقم (١٤٦٩) ، ومسلم في صحيحه برقم {(١٢٤) (١٠٥٣)} .

[2] القائل هو أبو تمام .

ومنها أنه محمود عواقبه ، فبالصبر تنال الإمامة في الدين كما قال تعالى : **(وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)** .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين .

وجاء الصبر مقترنا في آيات كثيرة متعددة في مقامات الإسلام العظيمة ، كمقام الإسلام ، ومقام الإيمان ومقام التوكل ، ومقام اليقين ، وغير ذلك .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في مدارج السالكين أيضا : بأن صبر يوسف عليه السلام على مطاوعة امرأة العزيز ؛ أكمل وأفضل وأعلى من صبره حين ألقاه إخوته في الجب؛ وحين غُيب عن أبيه ، وحين بيع واشتري ، لأن الصبر في المقام الأول عن طواعية واختيار، مع اختيار منه ومجاهدة لنفسه ؛ ومع توفر الدواعي والأسباب ؛ فامرأة العزيز سيدته وفي بيتها ، وغلقت الأبواب وهيأت نفسها له ، فكل أسباب الفتنة توفرت له ، فصبر عن هذا الداعي ، فهذا الصبر كان عن اختيار وطواعية ، بخلاف صبره في البئر ؛ وصبره عندما بيع واشتري ، فهذا شيء خارج عن إرادته ، فذاك أعظم وأفضل وأكمل .

قوله : من الإيمان الصبر على أقدار الله . يعني من الإيمان بالله جل وعلا: **الصبر على أقدار الله ؛ والأقدار** جمع قدر ؛ والقدر يطلق ويراد به فعل الله جل وعلا ؛ تقول : قدر الله وما شاء فعل ؛ فهذا فعل الرب جل وعلا ؛ وهذا يجب الرضا به ويحرم التسخط على فعله سبحانه وتعالى ، لأنه يفعل لحكمة بالغة عظيمة بعلم منه سبحانه وتعالى ، ويطلق أيضا القدر على المقدور المقضي ؛ يعني الشيء الذي قضي ووقع .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في النونية :

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ مقضي حين يكون بالعصيان

فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط المقضي : فرق بين القضاء الذي هو القدر والمقضي؛ فيقصد بالقضاء فعل الله جل وعلا ، فلذاك نرضى بالقضاء ، الذي هو فعل الرب جل وعلا وجوبا .

ونسخط المقضي حين يكون بالعصيان : فإذا كانت المصيبة التي وقعت معصية فيجب أن تبغضها وتكرهها وتسعى لتغييرها.

قوله : باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله ، والمقصود هنا الصبر على أقدار الله المؤلمة التي هي المصائب .

الدليل الأول :

وَقَوْلُهُ تَعَالَى {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (التَّغَابُن: ١١).

قالَ عَلْقَمَةُ: (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيْبُهُ المُصِيْبَةُ؛ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ).

قال تعالى :**(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ما أصاب من مصيبة** : هذا عام في كل المصائب ، في الدين أو في النفس أو في المال أو في الأهل أو غير ذلك ، فأي مصيبة كانت ما حدثت إلا بإذن الله الكوني القدري ، فما وقعت المصيبة إلا بتقديره ومشيئته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى .

ثم قال: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) وهذا محل الشاهد في الباب ؛ وهذه الآية التي استدل به المؤلف فيها نوع من العموم في اللفظ ، لكن المؤلف لما وجد كلام السلف في تفسيرها يدور حول معنى الصبر صدر به كلامه ، فقبلها يقول الله جل وعلا : **(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه)** فمن نظر لأول الآية فسر الإيمان بالله : بالإيمان بقضائه وقدره ؛ خاصة عند نزول المصائب ؛ وهذا التفسير فسر به عدد من الأئمة ؛ فابن الجوزي ذكر في زاد المسير ستة أقوال في تفسير هذه الآية ، أربعة منها تدور حول وقوع المصيبة واحتساب العبد وصبره وعلمه بأن هذه المصيبة وقعت بإذن الله جل وعلا وأمره وقدره .

وهذا الأثر الذي ذكره المؤلف رحمه الله عن علقمة بن قيس الكوفي النخعي ، وهو من كبار التابعين ومن تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه ، وكان علقمة بن قيس أشبه الناس بابن مسعود في سمته ودله وهديه ـ رحمه الله ـ وهذا الأثر جاء أيضا عن ابن مسعود رضي الله عنه بنحو لفظ علقمة ـ تلميذه ـ عند سعيد بن منصور في سننه قال: عن ابن مسعود في تفسير هذه الآية قال: هي المصيبات تصيب الرجل فيعلم أنها من عند الله فيسلم لها ويرضى .

وعلقمة يقول: **{هو الرجل تصيبه المصيبة}** وابن مسعود يقول : **{هي المصيبات تصيب الرجل}**، **{فيعلم أنها من عند الله}** فاتفقا في هذه العبارة ، قال ابن مسعود : **{فيسلم لها ويرضى}** ، وقال علقمة: **{فيرضى ويسلم}** فعلقمة بن قيس النخعي ـ تلميذ ابن مسعود ـ فسرها بما فسرها به شيخه ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ المفسر الكبير الذي كان يقول :{ **وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا هُوَ أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللهِ مِنِّي، تَبْلُغُهُ الإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ**}([1]) وهذا من التفسير باللازم **(ومن يؤمن بالله يهد قلبه)** أي: أدخل هنا الصبر والتسليم ـ وهو من الإيمان ـ فأطلق على الإيمان الصبر والتسليم والرضا، وهذا دليل عند أهل السنة

---

[1]) رواه مسلم في صحيحه برقم { ١١٥ – (٢٤٦٣)} .

لدخول الأعمال في مسمى الإيمان ، وفيه أيضا دليل على أن الصبر سبب لهداية القلوب ، **(ومن يؤمن بالله يهد قلبه)** .

(من): اسم شرط جازم ؛ **(يؤمن)** : فعل الشرط ؛ وجوابه : **(يهد قلبه)**

قال ابن عباس : **يَعْنِي يهد قلبه لليقين فيعلم أن مَا أَصَابَهُ لم يكن ليخطئه وَمَا أخطأه لم يكن ليصيبه** ، ذكره السيوطي في الدر المنثور .

قوله :(ومن يؤمن بالله) يؤمن بأن هذه المصائب حصلت بقدر الله وبأمره **(يهد قلبه)** ويملأ قلبه يقينا صادقا ويعوضه خيرا بخلاف الكافر، لأنه **قال : (يؤمن بالله)** فيستفاد منها أن من لا يؤمن بالله لا تحصل له الهداية ، بل هذا الجزاء يحصل لأصحاب الإيمان بمعناه العام ؛ ومنه الإيمان بالقدر .

ثم قال :(والله بكل شيء عليم) ومناسبة ختم الآية بهذه الجملة أنه تنبيه على أن ذلك القدر الذي حصل ؛ وهذا الابتلاء ؛ صادر عن علمه سبحانه المتضمن لحكمته البالغة، فإذا علم العبد أن هذا القدر وهذا المقدور وهذا الابتلاء حصل بعلمه المتضمن لحكمته اطمأن قلبه لربه جل وعلا ولفعله ولقدره .

وأكثر المفسرين فسروا هذه الآية باللازم إلا أن الشيخ ابن سعدي رحمه الله تعالى بعدما فسر الآية بما فسرها به السلف ؛ نبه على مسألة مهمة ؛ وهي التفسير باللفظ العام، فقال رحمه الله تعالى : **هذا ما يتعلق بقوله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي** ـ لأن الآية عامة ولم تُخصص بالمصائب إلا بحكم السياق ، يعني سياق الآية السابق وهو قوله :**(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله)** ـ **فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدَّق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله، وأفعاله وفي علمه وعمله ؛وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يثبتهم الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة. أهـ .([1])**

فهناك تفسيران : تفسير خاص باللازم وهو أن تفسر الآية بالمصائب يعني بما يحصل للمؤمن من الاستسلام والرضا عند المصائب ، وتفسير عام بأن من آمن بالله جل وعلا الإيمان الواجب المعروف في حديث جبريل يهد قلبه في أحواله وأقواله وعلمه وعمله .

---

[1]) انظر تفسير السعدي ؛ ص (٨٦٧) ط مؤسسة الرسالة .

علقمة : هو ابن قيس بن عبد الله النخعي، الكوفي ، ولد في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وهو من كبار التابعين ، مات بعد الستين .

قوله: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله» يعني بقدره ومشيئته **«فيرضى ويسلم»** يعني يستسلم لقضائه ، وهذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان .

ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن من ثواب الصابر الهداية ، وهذه نعمة عظيمة جدا ، قد تنفق ملء الأرض ذهبا ولا تستطيع أن تهدي أقرب الناس لك ، وأقرب مثال لهذا عم النبي صلى الله عليه وسلم الذي مات والنبي صلى الله عليه وسلم عند رأسه يقول له : يا عم قل لا إله إلا الله ؛ ومات دون أن يقولها ، فالقلوب بيد الله جل وعلا يهدي من يشاء هداية التوفيق، أما هداية الإرشاد فهي للأنبياء وللعلماء وللدعاة .

الدليل الثاني :

وَفِي صَحِيْح مُسْلِمٍ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ).

قوله : (اثنتان في الناس) يعني خصلتين تبقيان في الناس **«هما بهم»** يعني هاتين الخصلتين بهم ، يعني بالناس .

قوله: (بهم) إما أن يقال بهم يعني قائمة بهم ، خصلتان قائمتان بهم ، فتكون بهم على بابها ، أي على ظاهرها ، أو يكون بهم بمعنى فيهم ، هما فيهم كفر ؛ أو يكون بهم بمعنى منهم ؛ خصلتان في الناس هما منهم كفر ؛ وكلها تؤدي المعنى .

قوله: (كفر) الكفر هنا كفر دون كفر ؛ فالكفر شعب كما أن الإيمان شعب، والمعاصي من شعب الكفر كما أن الطاعات من شعب الإيمان ، وليس كل من قامت به شعبة من شعب الكفر كَفَرَ، كما أنه ليس كل من قامت به شعبة من شعب الإيمان صار مؤمنا ، فمن الممكن أن تجد كافرا وفيه شعبة إيمان ، كأن يرحم الفقير والمسكين أو يصل الرحم ، أو يبر الوالدين ونحو ذلك ، فليس كل من قامت به شعبة من شعب الإيمان صار مؤمنا ؛ وكذلك ليس كل من قامت به شعبة من شعب الكفر صار كافرا ؛ فهذه الشعب المذكورة في الحديث وغيرها من شعب الكفر ولا يكفر صاحبها ، وإنما هي كفر دون كفر .

قوله: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب» يطعن في نسب إنسان فيعيب فيه أو ينفيه ، يقول أنت لست من عائلة فلان ؛ ولست من قبيلة فلان ؛ ولست ابن فلان، فهذه من خصال الجاهلية : **الطعن في الأنساب** .

الخصلة الثانية: «النياحة على الميت» والنياحة هي : رفع الصوت بالندب والتوجع والتفجع ، كقول : يا جبلاه يا أسداه ونحو ذلك ؛ وتعداد محاسن الميت ؛ وعُد هذا من خصال الجاهلية لأن فيه تسخطا على القدر

الدليل الثالث :

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ مَرْفُوْعًا: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ وَشَقَّ الجُيُوْبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ).

قوله: «ولهما» يعني البخاري ومسلما .

«ليس منا» سبق الكلام عليها في تعريف الكبيرة ؛ وأنها داخلة في تعريف الكبيرة، فما خُتم بلعن أو نار أو وعيد أو حد في الدنيا أو قوله **«ليس منا»** فهو كبيرة ؛ كما حده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ..

والسلف على كراهة تأويل هذه الكلمة وكراهة تفسيرها ؛ حتى يظل لها الأثر في الزجر في نفس الناس وخاصة العوام ، والإمام أحمد رحمه الله كان يزجر عن تفسيرها زجرا شديدا وينهى عن تفسيرها ، وكذلك سفيان الثوري .

«ليس منا» وهذا يدل على أن هذا الفعل مناف لكمال التوحيد الواجب ، ففاعل هذا آثم وآت بمحرم .

قوله :«ليس منا من ضرب الخدود» وخص هنا ضرب الخدود لأنه الأكثر والأشهر ؛ وإلا فلو ضرب أي جزء من أجزاء وجهه أو جسده من أجل المصيبة للفزع والهلع فهو داخل في الحديث **«ليس منا»** .

قوله : «وشق الجيوب» والشق هو التمزيق ، **والجيوب** : جمع جيب ، والجيب هو مدخل الرأس من القميص .

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية» فضرب الخدود: فعل ؛ وشق الجيوب : فعل ؛ ودعا بدعوى الجاهلية : إما أن تفسَّر بتفسير عام يعني كل دعوى من دعاوى الجاهلية كالعصبية للقبائل والعصبية للأشخاص والحمية ، كقوله : أنا ابن فلان من العائلة الفلانية ومن البلدة الفلانية ، آبائي كذا وأجدادي كذا ، كما يفعله بعض الناس، هذه دعوى الجاهلية ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « **ما بال دعوى الجاهلية ؟! دعوها فإنها منتنة**»([1]) ؛أو يفسر كما

---

[1]) رواه مسلم في صحيحه برقم {٦٣ – (٢٥٨٤)} .

فسره شيخ الإسلام ابن تيمية : بندب الميت . كأن يقول : كان فلان جبلا وكان أسدا وكان كذا وكان كذا، يذكر محاسنه ويندب الميت بذكر محاسنه .

التفسير الثالث: الدعاء بالويل والثبور والهلاك عند وقوع المصيبة ؛ كأن يقول : يا خيبتي يا حسرتي.. إلى آخره ، وهناك ما هو أشد من ذلك كمن يقول : يا ليتني مكانَك ، فكلها ألفاظ تدل على التسخط على القدر وعدم الرضا بقدر الله جل وعلا، فهذه داخلة في دعوى الجاهلية .

ففي الحديث بيان أوجه التسخط على القدر فعلا وقولا، فعلا: كشق الجيب أو حلق الشعر أو ضرب الخدود ؛ وقولا : بالندب أو الدعاء بالويل أو الثبور أو الصراخ، أما ما كان من الدمع ، دمع العين والحزن فإنه لا بأس به ، قد فعله النبي صلى الله عليه وسلم وقال: «**إن العين لتدمع والقلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا**»(١) والإمام أحمد رخص في الشيء اليسير، كما قالت فاطمة رضي الله عنها عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبتاه أجاب ربا دعاه ؛ يا أبتاه جنة الفردوس مأواه .

الدليل الرابع :

وَعَنْ أَنَسٍ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ؛ عَجَّلَ لَهُ بِالعُقُوْبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ؛ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ).

قوله :«**وعن أنس**» هو أنس بن مالك رضي الله عنه .

قوله:« **حتى يوافي به يوم القيامة**» **يوافِيَ** : بضم الياء وكسر الفاء ، هكذا ضبطها الشراح ؛ يعني يوافيه به يوم القيامة .

هذا الحديث أخرجه الترمذي مع الحديث الذي بعده بإسناد واحد عن صحابي واحد وهو أنس ؛ قال الترمذي بعد ذكر الحديث : « **وقال صلى الله عليه وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط**» السَّخط أو السُّخط، هذا الحديث .

وهذا هو الدليل الخامس ؛ وقد رواه الترمذي وفيه سعد بن سنان وهو متكلم فيه ، يقال : سعد بن سنان أو سنان بن سعد ، الإمام أحمد تركه ؛ ووثقه الإمام يحيى بن معين ؛ وقال الحافظ صدوق له أفراد ؛ والشيخ الألباني قال : حسن صحيح ، فهذا الحديث مروي عن ثلاثة من الصحابة غير أنس ، فقد جاء عن

---

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم (١٣٠٣) .

عبد الله بن المغفل ؛ وعمار بن ياسر ؛ وأبي هريرة ، فهذا الحديث صحيح بشواهده .

قوله : «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا**» يعني إذا أذنب العبد وكان من نصيبه التمحيص والتطهير ، وأراد الله به الخير ؛ عجل له بعقوبته في الدنيا، ابتلاه في الدنيا بالمصائب المكفِّرة للذنوب.

قوله :«وإذا أراد بعبده الشر» أراد بعبده الشر لحكمة ، ولكن أفعال الرب جل وعلا كلها خير، فليس في فعله شر، ولكن الشر نسبي بالنسبة للعبد الواقع عليه القدر أو المصيبة ، لكن تجد من ناحية أخرى أن هذا الفعل الذي حصل للشخص أو هذه المصيبة هي خير لغيره ، فهي شر له لكنها خير لغيره ممن يعرفهم أو ممن لا يعرفهم .

كرجل فُصِلَ من وظيفته ؛ فاعتبر هذا شرا ؛ ثم جاء مكانه في الوظيفة شخص آخر، فاستلم هذه الوظيفة ؛ فلما جاءته الوظيفة عجل بزواجه وعجل ببنائه وتجهيز بيته ونحو ذلك ؛ فكان هذا خيرا له ولمن حوله ، وبالنسبة للشخص الذي فصل يرى في نفسه أن هذا شرا ، وهو أيضا قد يكون خيرا له من جهة أخرى، فقد يكون هذا سببا في بحثه عن عمل آخر فيحصل على وظيفة أعلى من الأولى . فهذا الشر شر نسبي، فأفعال الله جل وعلا كلها خير وهي لحكمة بالغة، وتابعة لعلمه وحكمته سبحانه وتعالى .

قوله :«وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه» فلم يؤاخذه بذنبه في الدنيا ، وجعله في الدنيا معافىً من أثر هذا الذنب ، «**حتى يوافي به يوم القيامة**» يعني حتى يوافيه به يوم القيامة فيجازى بهذا الذنب ، قال تعالى **(ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)** فيؤخر عقوبة هذا الذنب إلى الآخرة ، والعبد يرى أنه معافىً وأنه يفعل المعصية والله جل وعلا يعطيه النعم وينعم عليه ويطلب منه ويعطيه ، فهذا استدراج للعبد بالنعم على معاصيه حتى يأتي يوم القيامة فيجازى بذنبه جزاء وافيا كاملا .

قوله: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم**» إذا أحب قوما ابتلاهم ؛ وهذا فيه إثبات المحبة لله سبحانه وتعالى ؛ وكما جاء في الحديث «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في هذا الابتلاء – أو البلاء-**»([1]) ومن نظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مرض موته حيث كان يوعك كما يوعك الرجلان قال: «**إني لأوعك كما يوعك الرجلان**

---

[1]) رواه أحمد في المسند برقم (٢٧٠٧٩) ، والنسائي في الكبرى برقم (٧٥٦٧) ، وعلقه البخاري قبل (٥٦٤٨).

منكم»([1]) يعني كان صلى الله عليه وسلم في مرض موته وهو نبي وهو رسول وهو خليل الرحمن سبحانه وتعالى يتألم ألما شديدا كما يتألم رجلان من هذه الأمة ، فهذا زيادة في الابتلاء ، وهذا دليل أيضا من أدلة التوحيد أن الأنبياء والمرسلين تجري عليهم صنوف البلايا وصنوف المحن وتأتي عليهم الأمراض والأسقام دلالة على أن الجميع مفتقر إلى الله جل وعلا وأنه ليس بيد النبي شيء وليس بيد الرسول شيء وليس بيد الصالح شيء إلا ما قدره الله جل وعلا .

فيجب على العبد أن يتجه إلى ربه جل وعلا بدعائه وسؤاله واستغاثته ؛ فإذا كان الأنبياء والمرسلون تجري عليهم صنوف المحن والبلايا والأمراض فكيف بمن دونهم ، فهذا يقال لمن تعلق بالأموات ويأتي إليهم ويطلب منهم - ظنا أنهم يملكون شيئا.

قوله: «وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم فمن رضي فله الرضا» أي فمن رضي وسلم لله جل وعلا وحسن ظنه بربه ورغب في ثوابه فله الرضا ، يعني له الرضا من الله جزاء له ، وفي هذا إثبات صفة الرضا، ففي هذا الحديث إثبات المحبة وإثبات الرضا ، وفي آخره إثبات السخط ؛ في قوله : **«ومن سخط فله السَّخط – أو السُّخط-»** يعني كره فعل الله جل وعلا وكره تقديره الذي هو فعله .

قوله :«ومن سخط فله السَّخط - بفتح السين – **أو السُّخط** - بضم السين -» **فله** : اللام هنا للاستحقاق ؛ كما في قوله تعالى:(**أولئك لهم اللعنة**) يعني يستحقون اللعنة ، **(من سخط فله السخط)** يعني يستحق السخط ، هذا حسنه الترمذي وهو حديث صحيح بشواهده .

فِيْهِ مَسَائِلُ:

الأُوْلَى: تَفْسِيْرُ آيَةِ التَّغَابُن. سبق بيانه .

الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذَا مِنَ الإِيْمَانِ بِاللهِ. أي: الصبر على المصائب والعلم بأنها بقدر الله ؛من الإيمان بالله.

الثَّالِثَةُ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ. يعني أنه من خصال الجاهلية المنهي عنها .

الرَّابِعَةُ: شِدَّةُ الوَعِيْدِ فِيْمَنْ ضَرَبَ الخُدُوْدَ، وَشَقَّ الجُيُوْبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ. لأن الوعيد جاء بلفظ **«ليس منا»** .

الخَامِسَةُ: عَلاَمَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ. وهي أن يعجل له العقوبة في الدنيا .

السَّادِسَةُ: عَلاَمَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ. يعني أن يؤخر له العقوبة في الآخرة

---

[1]) رواه البخاري في صحيحه برقم (٥٦٤٨) ، ومسلم في صحيحه برقم { ٤٥ – (٢٥٧١)} .

السَّابِعَةُ: عَلاَمَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ. وهي أن يبتليه .

الثَّامِنَةُ: تَحْرِيْمُ السُّخْطِ. لقوله «**فله السخط**» أي يستحق السخط .

التَّاسِعَةُ: ثَوَابُ الرِّضَا بِالبَلاَءِ. يعني من رضي بالبلاء فله الرضا .

والله أعلم